

المتسولون واصنافهم في العصر العباسي (656-132)

هـ / 1258-750 م

The Beggars in the Abbasid Era

م.م. محمد وليد محمد

Asst. lect. Mohammed Walid Mohammed

قسم التاريخ / كلية التربية للعلوم الإنسانية

Department of History / College of Education for
Humanities

mohammedo@uosamarra.edu.iq

<https://orcid.org/0009-0009-1511-9817>

الكلمات المفتاحية: المتسولون، العصر العباسي، الفقر، التسول، بيت المال،
الفقراء .

Keywords: Beggars, Abbasid era, poverty, begging, Bayt al-Mal, the poor

المخلص

تعد ظاهرة التسول من الظواهر الاجتماعية التي ظهرت في العديد من العصور التاريخية، ومنها العصر العباسي، حيث تأثرت بتغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية. في هذا العصر، برز التسول كأحد المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها الفقراء والمحتاجون، نتيجة للبطالة والفقر الشديد الذي عمّ الكثير من شرائح المجتمع العباسي. كانت العديد من العوامل تساهم في زيادة أعداد المتسولين، مثل تفشي الحروب والأوبئة، وكذلك فساد بعض المسؤولين، مما أدى إلى تفاقم معاناة الفقراء، لم يكن التسول في العصر العباسي مقتصرًا على الفقراء فقط، بل شمل أيضًا بعض فئات المجتمع التي تعرضت للظلم أو التهميش. قد يختلف شكل التسول من منطقة إلى أخرى، حيث كان البعض يتسول بشكل علني في الشوارع، بينما كان آخرون يعتمدون على أساليب أخرى مثل التسول في المساجد والمقامات الدينية، ومن جهة أخرى، كانت الدولة العباسية تبذل جهودًا لتحسين أوضاع الفقراء من خلال تقديم الصدقات والتبرعات. كما تم إنشاء بعض المؤسسات الخيرية مثل "بيت المال" التي كانت تهدف إلى جمع وتوزيع المال على المحتاجين. لكن، ورغم هذه الجهود، بقي التسول ظاهرة مستمرة في المجتمع العباسي، مما يعكس التحديات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تواجهها الدولة والمجتمع في ذلك الوقت.

Abstract

The phenomenon of begging is a social issue that appeared in many historical eras, including the Abbasid period, where it was influenced by social, economic, and political changes. In this era, begging emerged as one of the social problems faced by the poor and the needy, due to widespread unemployment and severe poverty affecting many segments of Abbasid society. Several factors contributed to the increase in the number of beggars, such as the spread of wars, epidemics, and the corruption of some officials, which exacerbated the suffering of the poor. Begging in the Abbasid period was not limited to the poor, but also affected certain marginalized or oppressed groups in society. The form of begging varied from region to region, with some beggars openly asking for alms in the streets, while others relied on different methods, such as begging in mosques and religious shrines. On the other hand, the Abbasid state made efforts to improve the conditions of the poor by providing charity and donations. Institutions such as "Bayt al-Mal" were established to collect and distribute money to those in need. Despite these efforts, begging remained a persistent phenomenon in Abbasid society, reflecting the economic and social challenges faced by the state and its citizens at that time.

المقدمة

شهد المجتمع العباسي، ولا سيما في مدينة بغداد وسائر الحواضر الكبرى، تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية عميقة، أفرزت جملة من الظواهر الاجتماعية التي عكست اختلال التوازن بين طبقات المجتمع، ومن أبرز تلك الظواهر انتشار الكدية أو التسول بوصفه سلوكاً اجتماعياً لم يعد مقتصراً على حالات الفقر والعوز الفردي، بل تحوّل في كثير من الأحيان إلى مهنة قائمة على الحيلة والاحتيايل واستغلال القيم الدينية والأعراف الاجتماعية.

وقد أسهم ضعف السلطة المركزية في بعض مراحل الدولة العباسية، وتفتشي الفساد الاقتصادي، وازدياد الأعباء المالية على عامة الناس، في اتساع رقعة الفقر وظهور فئات اجتماعية متعددة اضطرتها ظروفها المعيشية أو دفعتها نزعاتها الانتهازية إلى امتهان التسول واتخاذها وسيلة للكسب. ولم تقتصر هذه الظاهرة على الفقراء والمنقطعين فحسب، بل شاركت فيها فئات أخرى كاللصوص الذين اتخذوا من التسول ستاراً لجرائمهم، والطفيليين الذين استغلوه لاختراق موائد الأغنياء، إضافة إلى الخدم والرقيق والجواري والخصيان الذين دفعتهم ظروف الاستغلال والتهميش إلى امتهان السؤال، فضلاً عن البخلاء الذين أسهم سلوكهم في إضعاف منظومة التكافل الاجتماعي وتفاقم ظاهرة الحرمان.

وتتبع أهمية هذا البحث من كونه يسلط الضوء على ظاهرة اجتماعية مركبة في العصر العباسي، ويكشف جذورها السياسية والاقتصادية، ويبرز انعكاساتها الاجتماعية والأخلاقية، بما يسهم في فهم أعمق لبنية المجتمع العباسي في عصور الضعف والانحسار، ويعيد قراءة الحياة اليومية للفئات المهمشة التي غالباً ما عُيبت عن الدراسات السياسية التقليدية.

وجاء اختيار هذا الموضوع لما له من قيمة علمية وتاريخية، إذ يمثل مدخلاً مهماً لدراسة الأزمات الاجتماعية في العصر العباسي، ويساعد على تفسير كثير من الظواهر المرتبطة بالفقر والانحراف الاجتماعي، فضلاً عن غنى المصادر التاريخية والأدبية التي تناولت أخبار المتسولين والمكدين وطرائقهم وأساليبهم في السؤال.

وحسب مقتضيات البحث تم تقسيمه إلى مبحثين، وذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: العوامل التي ساعدت على انتشار الكدية (المتسولين) في العصر العباسي، ويتناول:

1. عدم الاستقرار السياسي.

2. أثر الفساد الاقتصادي.

المبحث الثاني: أصناف المتسولين في العصر العباسي، ويبحث في:

1. اللصوص ودورهم في توظيف ظاهرة التسول في العصر العباسي.

2. الطفيليون ودورهم في توظيف ظاهرة التسول في العصر العباسي.
 3. الخدم والرقيق ودورهم في ظاهرة التسول في العصر العباسي.
 4. الجواري ودورهن في ظاهرة التسول في العصر العباسي.
 5. الخصيان ودورهم في ظاهرة التسول في العصر العباسي.
 6. البخلاء ودورهم في ظاهرة التسول في العصر العباسي.
- ثم تُختتم الدراسة بخاتمة تتضمن أبرز النتائج والاستنتاجات، تعقبها قائمة بالمصادر التي اعتمد عليها البحث.

المبحث الأول

العوامل ساعدت على انتشار الكدية (المتسولين) في العصر العباسي

في العصر العباسي، لم يكن الانتشار الواسع للتسول مجرد نتيجة لسوء الحظ الفردي، بل كان متجذراً بعمق في عدم الاستقرار السياسي والفساد الاقتصادي المنهجي، الأمر الذي أدى معاً إلى تفكيك النسيج الاجتماعي والاقتصادي للدولة.

1. عدم الاستقرار السياسي

كان تراجع السلطة المركزية وضعف الخلفاء العباسيين المتأخرين من العوامل الرئيسية وراء النزوح الاجتماعي. وقد تجلى هذا الاضطراب في عدة صور:

أ- الشلل الاقتصادي: أدى ضعف الخلفاء إلى زيادة الفوضى والاضطرابات الاجتماعية، مما أدى إلى شلّ الحياة الاقتصادية للمجتمع. (الحسين، 1995، 40)، مع فقدان الدولة لسيطرتها، وجدت العديد من الفئات الاجتماعية نفسها معدمة واضطرت إلى التسول (الكيدية) لمجرد البقاء على قيد الحياة..

ب- انهيار الأمن والجريمة والسرقعة: أدى تراجع هيبة الدولة وتراخي الأجهزة الأمنية إلى خلق بيئة خصبة للعصابات المنظمة واللصوص. ومن المثير للاهتمام أن هذه العناصر الإجرامية غالباً ما استخدمت التسول كغطاء استراتيجي؛ إذ كان بعض اللصوص

يتظاهرون بأنهم متسولون لاستطلاع المنازل قبل سرقتها ليلاً. (ابن الجوزي، د.ت، 197).

ت- تهميش الفئات الضعيفة: أدت التحولات السياسية والاجتماعية إلى التخلي عن بعض الفئات. على سبيل المثال، كان العبيد والخادمت والخصيان، الذين كانوا في السابق جزءاً من خدمة النخبة، يُستغنى عنهم غالباً عندما يتقدمون في السن أو عندما يواجه أسيادهم تدهوراً سياسياً أو اقتصادياً. (بن مليح، د.ت، 188). وبدون شبكات أمان اجتماعي أو رقابة حكومية، كان هؤلاء الأفراد يلجؤون في كثير من الأحيان إلى الشوارع للتسول. (الأمشاطي، د.ت، 82).

2. أثر الفساد الاقتصادي

وقد أدى الفساد داخل القطاعات الإدارية والمالية للدولة العباسية إلى تفاقم معاناة الفقراء، مما جعل التسول ضرورة واسعة الانتشار.

أ- اختلاس الضرائب وسوء الإدارة المالية: تفتش الفساد الاقتصادي بين المسؤولين، ولا سيما بين جامعي الضرائب الذين تلاعبوا بالإيرادات، إما عن طريق عدم إعادة الأموال إلى الخزانة أو من خلال تأجير الأراضي الزراعية بطريقة فاسدة. (الحسين، 1995، 40) أدى هذا الاستنزاف لـ "بيت المال" (الخزانة العامة) إلى إعاقة قدرة الدولة على إعالة المحتاجين على الرغم من الغرض المقصود منها وهو توزيع الصدقات. (الحموي، 1995، 67/1)؛ (الزبيدي، 2001، 185)..

ب- فجوة الثروة في المراكز الحضرية: في مدن مثل بغداد، أدى الفساد وتركز الثروة إلى خلق فجوة اقتصادية حادة بينما عاشت طبقة في ترفٍ فاحش، واجهت طبقاتٍ أخرى "فقراً مدقعاً"، وهي فجوة استغلها المتسولون بابتكار حيلٍ ذكيةٍ وأساليبٍ خادعةٍ لجمع المال من الأثرياء. (الحموي، 1995، 67/1).

ت- عدم استقرار السوق: أدى الفساد وسوء إدارة الموارد إلى ارتفاع أسعار السلع، مما أدى بدوره إلى اندلاع أعمال النهب ودفع الناس نحو "الإذلال والاحتتيال" (التسول) كأسلوب حياة. (الحسين، 1995، 40).

أن مهنة الكدية مريحة ولا تحتاج الى جهد او رأس مال، وكانت تدور بعض المحاورات مع المكدين أو المتسولين فقال أحدهم لو فتحت دكان بزاز كان خير من هذه الحرفة وتحفظ بها ماء وجهك فقال إذا كان تاجراً أو سفار وكان رأس ماله خمسة الاف دينار، كم يقع مكسبه في كل يوم بطال عمال، فقلت لعله يكسب نصف دينار، فقال: ان يقع لي في كل يوم خمسة أو عشرة دنانير او أكثر والتاجر لا من الخسارة في بعض الاوقات وصنعتي ربح لا خسارة فيها (الحسين، 1995، 38).

وبسبب هذه الظروف، تطور التسول من عمل يائس إلى "مهنة" مربحة. اختار الكثيرون هذا المسار لأنه لا يتطلب رأس مال ولا جهداً يُذكر مقارنة بالعمل التقليدي. تشير المصادر إلى أن بعض الأفراد فضلوا التسول على التجارة الشريفة، زاعمين أنه بينما قد يتكبد التاجر خسائر، فإن "حرفة" التسول تُعد ربحاً صافياً دون أي مخاطرة. يُبرز هذا التحول كيف أن اجتماع ضعف الدولة وفساد الاقتصاد جعل التسول استراتيجية بقاء أكثر جدوى من العمل المشروع. (المنجد، 1993، 83-85).

المبحث الثاني

أصناف المتسولين في العصر العباسي

أصبحت بغداد في العصر العباسي واضح عليها مواطن الترف والغنى لطائفة من الناس، وهي مدينة مترفه على البعض، وفقيرة على البعض لذا ظهرت فيها ظاهرة التسول. (الحموي، 1995، 67/1):

لذا قيل:

تصلح للموسر لا لأمرئ ... بيت في فقر وافلاس.

وكان الفقراء الذين ضمتهم بغداد والاقاليم كُثر وقد قضوا تحت نيل الفقر وحسراتهم تتردد في نفوسهم فلم يعلم بها احد ولم يذكرها انسان، ولم تكن مهنة التسول او كما عرفت في مصادر في المصادر العربية القديمة بالكدية، المنتشرة الانتشار العظيم، الا ان بعض أهل العامة يقفون على الجسور فيسألون الناس وكانت هذه المهنة تدر عليهم الاموال وتكفيهم عناء الاعمال واخذ

المتسولون ينتشرون في كل مكان واقبلوا من الكور والجهات الى بغداد لينعموا بفضلات موائد الميسورين المنعمين، ولم يصل احد المتسولون في بغداد الى حد الوقاحة والشرامة لأن بغداد و سعتهم واشبعتهم، واثرت الحضارة فيهم، فاستعانوا على الكدية بحيل فيها لطف وبراعة ومكر وخداع، وقامت عليها رائعات ادبية صورت لنا حالهم(الزبيدي، 2001، 185).

وقد سعى هؤلاء المتسولون من وراء هذه المهنة التي تدر المال الكثير بالجهد القليل، لذا عمل آخريين من الناس بالتظاهر بالفقر ويلجئون الى الكدية لينجوا من اعباء الحياة الثقال بدافع الكسل والتواني، لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق منك الرقبة من كل رق لا يلزمه اداء الزكاة، ولا يطمع فيه الاهل والجيران (المنجد، 1993، 86).

وقد تقنن الناس في السؤال وبرعوا في ضروبه وحيله ونهجوا نهوجاً مختلفة لأنهم وجدوا هذه الحيل سبيلاً الى جمع الأموال(الحسين، 1995، 35)، إذ كان المتسولون يقصدون الأماكن العامة الى جانب توافدهم على المنازل وكانت المساجد من اشهر الأماكن التي يقصدونها وخاصة في يوم الجمعة، وكذلك في الأعياد، وكان العديد منهم يتوجهون الى الاسواق، والشائع في حياة المتسول أو أن لا يستقر في مكان دائم ولا يخصه بلد يدور ويقطع الارض وكان هناك ايضاً من المكدين قد آثر المكوث على التطوف قانعاً بما بناه من الكدية(المنجد، 1993، 92).

1. اللصوص ودورهم في توظيف ظاهرة التسول في العصر العباسي

شهد القرن السادس الهجري تفشي ظاهرة اللصوصية في بغداد وسائر حواضر الدولة العباسية، نتيجة ما أصاب الدولة من ضعف سياسي واضطراب اجتماعي وصراع مذهبي، الأمر الذي هيا بيئة خصبة لانتشار العصابات المنظمة التي اتخذت من السرقة مهنة لها، تمارسها جهاراً من غير خوف أو وازع، مستندة إلى انهيار هيبة السلطة وتراخي الأجهزة الأمنية.

وقد تميّز اللصوص في هذا العصر بجرأتهم الشديدة وثقتهم بالإفلات من العقاب، حتى بلغ الأمر أن بعضهم كان يتحاور مع أصحاب الدور ويتندر عليهم، فقد روي أن رجلاً دخل داراً فلم يجد فيها ما يسرقه، فكتب على الحائط "عزّ علي فقركم وغناي"، ودخل آخر بيتاً فأخذ متاعه وخرج، فصاح صاحب الدار: ما أنحس هذه الليلة! فقال اللص: ليس على كل أحد (ابن الجوزي، د.ت، 197).

ولم تكن السرقة عملاً عشوائياً أو بدائياً، بل كانت تقوم على مهارات عالية من الحيلة والدهاء والتخطيط المسبق، فقد كان اللصوص يتقنون في طرائقهم ويبتكرون أساليب تمويه تكيّة، مستخدمين التكر والخداع الاجتماعي، حتى إنهم كانوا يرتدون ثياب التجار في وضح النهار ويدخلون الأسواق دون أن يُرتاب فيهم، فيسرقون التجار ثم يفرون سريعاً (ابن الجوزي، 1992، 30).

وكان من عاداتهم بعد كل عملية سرقة أن يعبروا إلى جهة المقابل، ولا سيما إذا كانوا جماعة، ليقتموا الغنائم أو يخفوها هناك بعيداً عن أعين السلطات (الفهد، 1967، 87). وتكشف الروايات التاريخية عن طرائق معقدة مارسها اللصوص في اقتحام الدور والمساجد، فقد ذُكر أن أحدهم دخل مسجداً فرأى رجلاً نائماً تحت رأسه كيساً فأخذه، ولما استيقظ الرجل وأراد اللحاق به وجد نفسه مشدوداً بخيط في أوتار مثبتة في أرض المسجد. وجاء عن آخر أنه كان يدخل الدور في النهار، فإذا أصبح في صحنها حفر حفرة صغيرة ووضع فيها جوزات كأنه يلعب شخصاً آخر، ثم يجمع ما يستطيع من المتاع، فإن لم يُقتضح خرج بما جمع، وإن فطن به صاحب الدار ترك المكان وهرب (ابن الجوزي، 1997، 66).

ومن حيلهم كذلك أنهم إذا أمسك بأحدهم واشتد صاحب الدار عليه واجتمع الجيران، عمد اللص إلى مجادلة صاحب الدار وإيهام الناس بأن بينهما معرفة قديمة ومقامرات طويلة، وأن المال المتنازع عليه هو ثمرة قمار لا سرقة، اتقاءً للفضيحة (الفهد، 1967، 85).

وفي هذا السياق، تتجلى الصلة الوثيقة بين اللصوص وظاهرة التسول، إذ لم يكن التسول في كثير من الأحيان تعبيراً عن فقر حقيقي، بل وسيلة من وسائل الاحتيال الإجرامي المنظم. فقد اتخذ بعض اللصوص من التسول ستاراً لاخترق الدور واستطلاعها تمهيداً لسرقتها. ومن ذلك ما روي أن جماعة من اللصوص خرجوا لسرقة دار، فاتفقوا على أن يتقمص أحدهم دور المتسول، فيستدر عطف أهل الدار، فتخرج الجارية لتعطيه شيئاً من المال، فيبتعد قليلاً لتلحق به، وعندئذ يدخل لص آخر الدار ويختبئ فيها، حتى إذا انتصف الليل فتح الباب لأصحابه فدخلوا وسرقوا ما فيه (ابن الجوزي، 1992، 78).

وهكذا يتضح أن اللصوص في العصر العباسي لم يكونوا مجرد قطاع طرق، بل جماعات منظمة أتقنت توظيف المظاهر الاجتماعية - وعلى رأسها التسول - لتحقيق غاياتها الإجرامية، في صورة تكشف عن عمق الأزمة الاجتماعية والأمنية التي عاشتها الدولة في أواخر عصورها.

2. الطفيليون ودورهم في توظيف ظاهرة التسول في العصر العباسي

أطلق على الذين يحضرون العزائم بدون دعوة خاصة في الاعراس، وقد كثر هؤلاء في العصر العباسي المتأخر نتيجة الفقر ونظر هؤلاء إلى موائد الأغنياء الذين كانوا يضعون حجاباً على الأبواب لمنع الطفيليين فيقوم هؤلاء باستخدام أنواع الحيل للدخول (البغدادى، 1999، 48). تُعدّ ظاهرة الطفيليين من أبرز الظواهر الاجتماعية التي شاعت في العصر العباسي المتأخر، وهي تعكس جانباً من التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها المجتمع آنذاك، ولا سيما تفاقم ظاهرة الفقر واتساع الفجوة بين طبقة الأغنياء وسائر فئات المجتمع. وقد أُطلق في اللغة وصف الطفيليين على أولئك الذين يحضرون الولائم والاعراس من غير دعوة، طمعاً في الطعام والشراب، مستغلين ما يقام من موائد عامرة في دور الأثرياء وكبار القوم.

وقد كثر هؤلاء في العصر العباسي المتأخر نتيجة اشتداد الحاجة وضيق ذات اليد، فصاروا يتخذون من التطفل وسيلة للعيش، بل ارتقوا به إلى نوع من الحيلة الاجتماعية المنظمة. فقد عمد بعض الأغنياء إلى وضع حجاب على أبواب دورهم لمنع الطفيليين من الدخول إلى الولائم، إلا أن ذلك لم يثبهم عن غايتهم، إذ لجأوا إلى ضروب من الخداع والتكر والتوسل، مستثمرين مظاهر التسول واستدراج العطف للنفوذ إلى الموائد.

وكان الطفيليون يتقنون في أساليبهم، فيظهر أحدهم بمظهر الفقير المعدم، أو الشيخ الضعيف، أو الغريب المنقطع، فيستدر رحمة أصحاب الدور أو خدامهم، حتى يُؤذن له بالدخول، فإذا دخل اندس بين المدعويين وكأنه واحد منهم. وقد اتخذ بعضهم التسول ستاراً للتنمويه الاجتماعي، إذ لم يكن سؤالهم مقصوداً على المال فحسب، بل كان وسيلة لاختراق الحواجز الاجتماعية والوصول إلى موائد الأغنياء.

وتكشف هذه الممارسات عن صورة من صور التحايل الاجتماعي الذي فرضته ظروف العوز والحرمان، حيث تحوّل التسول عند الطفيليين من حالة اضطرار فردية إلى سلوك جماعي قائم على الذكاء الاجتماعي واستثمار العادات والتقاليد السائدة في المجتمع العباسي، ولا سيما ما كان يُعرف من كرم الضيافة وإكرام الضيف.

تمثل ظاهرة الطفيليين نموذجاً خاصاً من نماذج الانحراف الاجتماعي الناعم، الذي لا يقوم على العنف أو السرقة، وإنما على المكر الاجتماعي واستغلال القيم الأخلاقية ذاتها لتحقيق المكاسب المعيشية، وهو ما يفسر كثرة أخبارهم في كتب الأدب والاجتماع العباسي. (البغدادي، 1999، 48)

3. الخدم والرقيق ودورهم في ظاهرة التسول في العصر العباسي

شهد العراق في العصر العباسي نشاطاً واسعاً في تجارة الرقيق، مستفيداً من موقعه الجغرافي الذي يتوسط الطرق التجارية البرية والبحرية الممتدة من الهند شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، الأمر الذي جعله مركزاً رئيساً لاستقبال الرقيق وتوزيعهم على مختلف أقاليم الدولة الإسلامية (المسري، د.ت، 117). وكان الحصول على هؤلاء الرقيق يتم عبر طريقتين رئيسيتين: الأسر في الحروب والغزوات، أو التجارة المنظمة التي نشطت في أسواق متخصصة داخل العالم الإسلامي وخارجه (السيوطي، د.ت، 244).

وقد اشتهرت عدة أسواق بتزويد العراق بالخدم والجواري، من أبرزها سوق (بيلة) في بلاد الروم، الذي عُرف ببيع الجواري الرومانيات والتركيات (الأمشاطي، د.ت، 82)، وسوق (زويلة) في المغرب الذي اشتهر بتجارة الخدم السودان ونقلهم إلى أسواق العراق والمشرق الإسلامي (بن مليح، د.ت، 188). وكان من أشهر تجار الرقيق اليهود الرادانية، الذين ذاع صيتهم، بسبب تمكنهم من التحدث بعدة لغات منها السلافية والرومانية والفارسية والعربية، مما سهّل نشاطهم التجاري عبر الأقاليم المختلفة.

غير أن هذه التجارة الواسعة لم تخلُ من آثار اجتماعية سلبية، تمثلت في معاناة كثير من الرقيق والخدم من سوء المعاملة وحرمانهم من حقوقهم الإنسانية، ولا سيما أولئك الذين لم يحظوا بعناية ساداتهم أو أهملوا بعد تقدمهم في السن أو ضعف قدرتهم على العمل. وقد أدى ذلك إلى طرد بعضهم من دور أسيادهم أو التخلي عنهم دون مورد رزق أو مأوى، فوجدوا أنفسهم في مواجهة الفقر والعوز.

وفي ظل هذه الظروف، تحوّل عدد من الرقيق المحرومين أو المطرودين إلى التسول وسيلةً للعيش، بعدما انقطعت بهم السبل، ولا سيما في المدن الكبرى كبغداد والبصرة وسامراء، حيث كانت الكثافة السكانية وتنوع الطبقات الاجتماعية يوفران بيئة مناسبة لاستدرا الصداقات.

وهكذا لم يعد التسول ظاهرة مقصورة على الفقراء الأحرار وحدهم، بل شمل فئة من الرقيق السابقين الذين أُلقي بهم في هامش المجتمع دون حماية أو كفالة.

وتكشف هذه الظاهرة عن جانب من الاختلال الاجتماعي في العصر العباسي، حيث أسهم توسع تجارة الرقيق من جهة، ونفشي الفقر وضعف الرقابة الاجتماعية من جهة أخرى، في إنتاج فئة مهمشة وجدت في التسول ملاذاً أخيراً للبقاء. وهو ما يعكس صورة مؤلمة عن التحولات التي أصابت البنية الاجتماعية في أواخر العصور العباسية، حين لم تعد دور الرعاية والضمان الاجتماعي قادرة على استيعاب الأعداد المتزايدة من المنقطعين والمحرومين.

4. الجوّاري ودوره في ظاهرة التسول في العصر العباسي

شهد العصر العباسي كثرة أعداد الجوّاري نتيجة الرخاء الاقتصادي واتساع حركة التجارة، فجيء بهن من بلدان متعددة شملت الحبشيات، والروميات، والجرجيات، والشركسيات، والعربيّات وغير ذلك من الأجناس (حسن، 1953، 374). وكانت الجوّاري تُباع وتُشترى في سوق النخاسين، الذي عُدّ من أبرز الأسواق المرتبطة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية في بغداد وسائر الحواضر العباسية (ابن كثير، 2013، 62/9).

وقد لعبت الجوّاري دوراً بارزاً في الحياة الثقافية والسياسية في الدولة العباسية، وكان لبعضهن نفوذ داخل البلاط، كما في قصة جارية الخليفة المقتدي التي سعت إلى خلع ابنه المستنجد لصالح ولدها أبي علي، لكنها لم تنجح في مسعاها (ابن دحية، 2001، 310). وكذلك جارية الخليفة الناصر المعروفة بشجرة الدر، التي كانت بارعة في تقليد خط الخليفة وتوقيعه، وأثبتت كفاءتها حين ضعف بصر الخليفة فكانت ترد على الكتب وتجيّب بما تراه مناسباً (السيوطي، د.ت، 328).

غير أن هذه الصورة المشرقة لم تكن تمثل حال جميع الجوّاري، إذ إن كثيراً منهن كنّ يعانين من القهر وسوء المعاملة وحرمان الحقوق، ولا سيما من وقعن في أيدي سادة قساة لا يراعون لهن ذمة ولا كرامة. وقد أدى ذلك إلى طرد بعض الجوّاري من دور مواليهن بعد ضعف جمالهن أو تقدمهن في السن أو زوال المنفعة المرجوة منهن، فوجدن أنفسهن بلا مأوى ولا مورد رزق.

وفي ظل هذه الظروف القاسية، اضطرت بعض الجوّاري المطرودات أو المهملات إلى سلوك طريق التسول وسيلة للعيش، مستثمرات ما يملكن من حسن الهيئة أو فصاحة اللسان أو

القدرة على استدرار عطف الناس. ولم يقتصر الأمر على السؤال المباشر، بل لجأت بعضهن إلى أساليب الإغواء والتمثيل واستدرار الشفقة، فيظهرن بمظهر المظلومات المنكوبات، أو يتقربن من الرجال لاستمالة قلوبهم والحصول على المال، بل وصل الأمر أحياناً إلى النصب والاحتيال باسم الفقر والحرمان.

وهكذا تحولت فئة من الجواري من عنصر فاعل في الحياة الاجتماعية والسياسية إلى فئة مهمشة على هامش المجتمع، دفعتها ظروف الاستغلال والطرده وغياب الضمان الاجتماعي إلى امتهان التسول والتحايل، في صورة تكشف عن جانب مظلم من البنية الاجتماعية في العصر العباسي، حيث امتزج الرخاء الاقتصادي باتساع دوائر الفقر والانحراف الاجتماعي.

5. الخصيان ودورهم في ظاهرة التسول في العصر العباسي

يُعدّ الخصيان من الفئات الاجتماعية التي ارتبط وجودها بالبنية الخدمية في قصور الخلفاء والأمراء وبيوت كبار القوم في العصر العباسي، وقد خضع المخصي لعملية جراحية يُقصد بها تعطيل الأعضاء التناسلية كلياً أو جزئياً مع الاحتفاظ بحياته، ولم يكن المخصي بالضرورة رقيقاً مملوكاً، بل قد يكون حراً أُخضع لهذه العملية على سبيل النكاية والتعذيب. ونظراً لمخالفة الخصاء لتعاليم الدين الإسلامي، فقد لجأ المسلمون إلى شراء الخصيان من اليهود والنصارى للخروج من الشبهة الدينية (متر، 1957، 152).

وكان الإخصاء يتم غالباً للأطفال الذين يُسبون في الحروب ويبيعون في أسواق الرقيق، أو للكبار الذين يُستعبدون جراء الأسر، وربما اختطف بعض الأطفال من الشوارع والأسواق لهذا الغرض. وقد استُخدم الخصيان في خدمة الحريم داخل قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء، وفضلوا لهذه المهمة حرصاً على النساء وربات الخدور، كما بلغت أثمانهم مبالغ عالية، وكانوا من أجناس متعددة شأنهم في ذلك شأن الرقيق والجواري من الروم والأحباش والصقالبة. وقد بالغ الخلفاء العباسيون في اقتنائهم، حتى إنه لما دخل هولاكو بغداد كان في قصر الخليفة المستعصم ثلاثمائة خادم خصي (ابن العبري، 1992، 272).

كما استُخدم الخصاء أحياناً عقوبةً قاسية بحق بعض المخالفين، فقد أمر عماد الدين زنكي بخصي حسن البريطي وقتله وصلبه عقوبة له على تحرشه بالنساء (الذهبي، 1985، 561/1)، واتبع الفرنجة سياسة الجبّ بعد دخولهم حلب سنة (518هـ/1124م) بحق الأسرى

المسلمين، كما وقع ذلك لمجاهد الدين بهروز صاحب تكريت (المعموري، د.ت، 187). واستخدم الخصاء أيضاً كعقوبة رادعة في بعض الحالات، كما جرى ليحيى بن أبي سعد البصري سنة (600هـ/1203م) بعد جمع معلمي بغداد وخصيهم ثم نقلهم إلى البيمارستان (ابن خلكان، 1994، 1/259).

وقد تنوعت أعمال الخصيان في خدمة البيوت، فمنهم السقاؤون الذين ينقلون الماء إلى دور أسيادهم، ومنهم من استُخدم في الطبخ، أو رافق سيده إلى الأسواق للتبضع، أو قاد دابته، بل استطاع بعضهم التقرب إلى الخلفاء ونيل الحظوة لديهم (الفهد، 1967، 42).

غير أن هذه المكانة الخدمية لم تكن مضمونة الدوام، إذ إن كثيراً من الخصيان عانوا من سوء المعاملة وحرمان الحقوق، ولا سيما عند تقدمهم في السن أو ضعف قدرتهم على العمل أو زوال حاجة ساداتهم إليهم. وقد أدى ذلك إلى طرد بعضهم من دور مواليهم أو التخلي عنهم دون نفقة أو مأوى، فوجدوا أنفسهم في مواجهة الفقر والعوز بعد حياة طويلة من الخدمة القسرية. وفي ظل هذه الظروف القاسية، اضطر عدد من الخصيان إلى امتهان التسول في شوارع بغداد وسائر المدن العباسية، مستغلين ما بهم من عاهات ظاهرة وآثار تعذيب جسدي لاستعطاف الناس واستدرار عطفهم. فكانوا يظهرن بمظهر المظلومين المنكوبين الذين سُلبت إنسانيتهم في طفولتهم، فيستدرون الصدقات بذكر ما قاسوه من الأسر والخصاء والخدمة القهرية. وهكذا تحوّل بعض الخصيان من خدم في قصور الخلفاء والأمراء إلى متسولين على أبواب المساجد والأسواق، في صورة تكشف عن عمق الأزمة الاجتماعية في العصر العباسي، حيث أفرزت مؤسسة الرق والخدمة القسرية فئات مهمشة لم تجد من يكفلها بعد انقضاء دورها الوظيفي، فكان التسول ملاذها الأخير للبقاء.

6. البخل ودورهم في ظاهرة التسول في العصر العباسي

تظهر ظاهرة البخل في المصادر التاريخية والأدبية العباسية بوصفها إحدى الصفات الاجتماعية السلبية التي استحكمت النقد والسخرية والذم، لما ترتب عليها من آثار أخلاقية واقتصادية خطيرة في بنية المجتمع. فقد نقل ابن رجب الحنبلي صورة واقعية لأحوال البخل في أواخر العصر العباسي من خلال شخصية بغدادية اشتهرت بالبخل، هو ابن الخشاب البغدادي، فقال عنه: «كان بخيلاً مقتراً على نفسه» (ابن رجب، 2005، 2/253)

وقد ارتبط البخل في الوعي الاجتماعي بجملة من الصفات الذميمة الأخرى، كالجشع والجبن والكذب والجهل، الأمر الذي أدى إلى إقصاء من يتصف به عن المناصب الإدارية المهمة، كما عززت كتب الوعظ والتاريخ هذه الصورة السلبية، فنقل ابن الجوزي عدة أحاديث في ذم البخل وأهله (ابن الجوزي، 2005، 260/6).

ولم يقف أثر البخل عند حد كونه صفة فردية مذمومة، بل امتد ليشكل عاملاً من عوامل تفاقم ظاهرة الفقر والتسول في المجتمع العباسي، إذ إن امتناع البخل عن أداء الحقوق الاجتماعية من صدقات وزكوات ونفقات على الفقراء والمساكين أسهم في اتساع رقعة الحرمان، ولا سيما في المدن الكبرى التي كانت تضم أعداداً كبيرة من الفقراء والمنقطعين وأصحاب العاهات.

وقد انعكست صورة البخيل في الأدب العربي انعكاساً واسعاً، فخصص ابن حمدون باباً للبخلاء في الموروث الإسلامي، وعدّ المؤرخون البخل نوعاً من الأمراض النفسية التي تحتاج إلى الوعظ والإرشاد. ومن ذلك ما أورده ابن حمدون عن رجل من البخلاء أفرط في البخل حتى صار مضرب المثل، فلما نصحه جازّ له من الزهاد وبيّن له أن ادخاره المال كله إنما هو جمعه لمن يخلفه، رجع عن خلقه وعاد من الأجواد (ابن حمدون، 1996، 309/2).

كما تذكر كتب الأدب محاورات طريفة جرت بين البخلاء والأسخياء، تكشف عن محاولة بعض البخلاء تبرير سلوكهم بالاستشهاد بآيات القرآن الكريم في غير مواضعها، كما في قصة البخيل الذي كان يدور على الموائد في وليمة ويقول ((وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً)) (سورة الإنسان، الآية 12)، وردّ عليه أحد الأسخياء بآية: ((الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً)) (سورة البقرة، الآية 268) (النويري، 2002، 205/3).

وتشير المصادر كذلك إلى أثر العامل الوراثي في انتقال صفة البخل داخل الأسرة الواحدة، وهو ما أورده ابن حجة في قصة الأسرة التي غلب عليها طبع البخل جيلاً بعد جيل (ابن حجة، 1952، 248/2)، كما نقل النويري صوراً من حرص البخلاء على توريث هذا الخلق لأبنائهم، وتعويدهم على الشح والإمساك منذ الصغر (النويري، 2002، 271/3).

وفي ضوء ذلك، يتضح أن ظاهرة البخل لم تكن مجرد سلوك فردي معزول، بل كانت عاملاً اجتماعياً مساهماً في تعميق الفوارق الطبقيّة وإضعاف شبكة التكافل الاجتماعي التي كان

يفترض أن تحد من انتشار الفقر والتسول. فكلما ضاقت أيدي الأغنياء عن الإنفاق، اتسعت أيدي الفقراء للسؤال، وازداد عدد المتسولين في الأسواق والمساجد وأبواب الدور. وهكذا أسهم البخل، بما يحمله من امتناع عن أداء الواجبات الاجتماعية، في إعادة إنتاج الفقر وإدامة ظاهرة التسول في المجتمع العباسي، في صورة تعكس التناقض الصارخ بين مظاهر الثراء والترّف من جهة، وانتشار العوز والحرمان من جهة أخرى.

الخاتمة

أفضت هذه الدراسة إلى رسم صورة للواقع الاجتماعي في العصر العباسي، حيث تبين أن ظواهر التسول، والرق، والتطفل لم تكن مجرد سلوكيات فردية، بل كانت نتاجاً لتفاعلات معقدة بين البنى الاقتصادية والتحوّلات السياسية. فقد لعب تراجع السلطة المركزية واستشراء الفساد الإداري دوراً جوهرياً في تعميق الفجوة الطبقية، مما حول "الاستجداء" من حالة اضطرارية إلى ظاهرة مجتمعية متجذرة في الحواضر الكبرى كبغداد، والتي عكست بوضوح حدة التباين المعيشي بين طبقات المجتمع: وتبين بالشكل التالي:

1. ساهمت العوامل الاجتماعية والاقتصادية في انتشار ظواهر مثل التسول، الرقيق، والطفيليين في المجتمع العباسي، حيث كانت الظروف الاقتصادية والسياسية تؤثر بشكل كبير على الطبقات الاجتماعية الضعيفة.
2. ضعف الخلفاء العباسيين وتأثير الفساد الإداري أسهم في ازدياد حالات الفقر والاستجداء، حيث اعتمد كثير من الناس على التسول كوسيلة للبقاء، مما ساهم في زيادة تدهور الوضع الاجتماعي.
3. التسول أصبح ظاهرة مألوفة في بغداد والمدن الأخرى في العصر العباسي، حيث توافد الفقراء من مختلف المناطق بحثاً عن المساعدة من الأغنياء، مما يعكس التفاوت الطبقي الكبير في المجتمع العباسي.
4. استغل البعض المعتقدات الدينية لتبرير التسول، حيث كانت بعض الطوائف الدينية تدعم فكرة الاستجداء، مما جعل الظاهرة جزءاً من بعض العقائد الدينية في تلك الفترة.

5. البخل كان من أبرز العيوب التي تحدث عنها المؤرخون في العصر العباسي، حيث ارتبطت هذه الصفة بالعديد من الصفات السلبية الأخرى مثل الجشع والجبن، وأدت إلى عزلة أصحابها عن المجتمع.
6. ظهرت العديد من الأعمال الأدبية التي تناولت هذه الظواهر بشكل ساخر أو ناقد، مما يعكس تأثير هذه الظواهر في الحياة اليومية للمجتمع العباسي.

المصادر والمراجع:

1. الأمشاطي، أحمد. (دون تاريخ). القول السديد في اختيار الإمام والعبيد.
2. البغدادي، أحمد بن علي. (1999). التطفيل وحكايات الطفيليين. بيروت: دار ابن حزم.
3. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (1992). المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. بيروت: دار الكتب العلمية.
4. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (1997). أخبار الظراف والمتماجنين. بيروت: دار ابن حزم.
5. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (2005). جامع المسانيد. الرياض: مكتبة الرشد.
6. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (دون تاريخ). كتاب الأتكياء. بيروت: مكتبة الغزالي.
7. ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر. (1952). المستطرف في كل فن مستظرف. القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
8. حسن، علي إبراهيم. (1953). التاريخ الإسلامي العام. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
9. حسين، أحمد. (1995). أدب الكدية في العصر العباسي. دمشق: دار الحصاد.
10. ابن حمدون، محمد بن الحسن أبو المعالي. (1996). التذكرة الحمدونية. بيروت: دار صادر.
11. الحموي، ياقوت بن عبد الله. (1995). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.



12. ابن خلكان، أحمد بن محمد. (1994). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. بيروت: دار صادر.
13. ابن دحية الكلبي، عمر بن الحسن. (2001). النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس . القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
14. ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن. (2005). ذيل طبقات الحنابلة. الرياض: مكتبة العبيكان.
15. ابن العبري، يوحنا بن هارون أبو الفرج. (1992). تاريخ مختصر الدول. بيروت: دار الشرق.
16. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (2013). البداية والنهاية. دمشق-بيروت: دار ابن كثير.
17. المليح، عبد الإله. (2004). الرق في بلاد المغرب والأندلس. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي